بحث تاريخي

دير المحرق
حضارة وتاريخ وتراث

الأستاذة الدكتورة/ شيرين صادق الجندي
أستاذ الآثار والفنون القبطية
ورئيس قسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب – جامعة عين شمس

شُيِّد دير السيدة العذراء المحرَّق بجبل قُسقام، ويُعرف مختصرًا بدير المحرَّق. هو دير مسيحى يتبع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ويبعد ١٢ كيلومترًا تقريبًا عن مدينة القوصية بمحافظة أسيوط. وقد أُتيحت لى زيارة هذا الدير العتيق أثناء حضوري المؤتمر الدولي السادس للمسيحية والرهبنة القبطية بدير المحرَّق بأسيوط (٤ - ٨ فبراير ٢٠١٣م)، وكان بعنوان:

"Christianity and Monasticism in Middle Egypt: The Region from al-Bahnasa (Oxyrhynchus) to Dayr al-Ganadla".

حيث ألقيت أنا في هذا المؤتمر الهام بحث باللغة الإنجليزية بعنوان:
"**Christianity and Monasticism in Al-Bahnasa (Oxyrhynchus) according to Arabic Sources**".

الشكل رقم ١. قداسة البابا تواضروس أثناء إلقاء كلمته فى المؤتمر الدولى السادس للمسيحية والرهبنة القبطية بدير المحرق بأسيوط (فبراير ٢٠١٣).

كما تقابل العلماء والباحثون المشاركون في هذا المؤتمر العلمي مع البابا تواضروس وذلك في أعقاب اختيار قداسته بطريرك الكرازة المرقسية مباشرة (الشكل رقم ١). ومن أهم باباوات دير المحرَّق البابا غبريال الرابع وهو البطريرك القبطي رقم ٨٦ (١٣٧٠-١٣٧٨م). ويعتبر كل من الأنبا ثاوفيلس (١٩٠٥-١٩٢٩م) والأنبا بطرس (١٩٢٠-١٩٥١م) من أهم الأساقفة الذين تم اختيارهم من رهبان دير المحرَّق.

أسماء دير المحرَّق:

ويعرف الدير باسم دير العذراء بالمحرَّق حيث شُرِّف بزيارة العائلة المقدَّسة التي يُعتَقد أنها استقرت في مغارته السفلية قرابة ستة أشهر قبل عودتها إلى مدينة الناصرة في فلسطين وفقًا للتقليد القبطي الأرثوذوكسي. وكانت تُحرَق بجواره الحشائش والنباتات الضارة بعد تجميعها في منطقة واحدة عُرفت باسم المنطقة المحترقة أو المحروقة، لذا أُطلق على الدير اسم المحرَّق بسبب قُربه من المنطقة المحترقة.

ويُعرف دير المحرَّق كذلك باسم دير جبل قُسقام. ويُعتقد أن اسم قسقام مشتق من اللغة المصرية القديمة حيث يتكوَّن من مقطعين وهما: "قس" وهو اسم مدينة غير موجودة حاليًا وكانت عاصمة الإقليم الرابع عشر في مصر العليا، ولم يتبقَّ منها غير البربا **πιερφει** وتعني "المعبد". كما يُقصد بها أيضًا من الناحية الدينية المكان العلوي. أما معناها في الحياة اليومية فهو تكفين أي تكفين الجثة وتجهيزها للدفن وتحنيطها. أما الجزء الثاني من كلمة قسقام "قام" فهو اسم منطقة كانت موجودة في غرب الإقليم الرابع عشر. ودينيًّا، يُقصد بهذا الاسم "اللانهاية".

الدير في البرديات والمصادر التاريخية وكتابات الرحالة والعلماء

وفى بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، ذُكِر هذا الدير الأثري الهام في مؤلف أبو المكارم. كما أشار إليه المؤرِّخ المملوكي المقريزي في مؤلفه المنشور سنة ١٨٥٣. وكتب كثير من العلماء والباحثين والرحَّالة الأجانب عن دير المحرَّق وعمارته ومبانيه المختلفة مثل J.M. Vansleb (١٦٧٨)، E.M. Quatremère (١٨١٢)، E.F. Jomard (١٨٢١) في المجلد الرابع من كتاب وصف مصر ***Description de l'Égypte***، H. Zotenberg (١٨٧٧)، M. Guidi (١٩١٧)، U. Monneret de Villard (١٩٢٨)، E.A.W. Budge (١٩٢٨)، V. Buri (١٩٣١)، E. Cerulli (١٩٤٣)، F. Muyser (١٩٤٤)، H. Munier (١٩٤٨)، O.G.S. Crawford (١٩٥٨)، G. Troupeau (١٩٧٤)، C. Sicard (١٩٨٢)، R.G. Coquin & Maurice Martin S.J. (١٩٩١) و Bishop Gregorios

كما وردت الإشارة إلى هذا الدير الأثري في بعض المخطوطات الحبشية لا سيما ما حدث من عجائب ومعجزات وقت تشييده في القرن الرابع الميلادي. ولدير المحرَّق مكانة خاصة وقدسية كبيرة وشأن عظيم في نفوس الأحباش لا سيما بعد أن أصبحت الحبشة من الإيبراشيات التابعة للكرسي المرقسي بالإسكندرية حيث كان الحبش يعتبرون مصر أورشليم الثانية، فوفدوا إليها لزيارة الأماكن التى شُرِّفت بزيارة العائلة المقدَّسة في مصر. وقد عُثِر على إشارة تاريخية من القرن الرابع الميلادي تؤكد وجود الأحباش في دير المحرَّق في نهاية هذا القرن. كما امتلأت أديرتهم الأثيوبية بنفائس المخطوطات التى تشير إلى معجزات السيدة مريم العذراء في هذا الدير التاريخي الهام.

وأكد أحد العلماء الغربيين على وجود ما يقرب من ثلاثين من الرهبان والقسيسين والشمامسة الأحباش في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. كما يُعتَقد أن الراهب أرسانيوس الحبشي قد عاش في أيام البابا متاؤس الكبير (١٣٧٨ - ١٤٠٨) في هذا الدير.

وبالدير نسخة من الأناجيل التى أرسلها الملك الحبشي صايفا أراد كهدية لرهبان دير المحرَّق. وعندما زارت الملكة الأثيوبية منتواب دير المحرَّق في خلال القرن الثامن عشر الميلادي، أخذت منه ترابًا استخدمه فيما بعد ابنها إياسو في بناء كنيسة جبل قسقام في إقليم جوندرا بأثيوبيا سنة ١٧٣٨.

تاريخ الدير واكتشافه:

يرجع تاريخ دير المحرَّق إلى القرن الرابع الميلادي تقريبًا، ويعتقد أن القديس باخوميوس هو من قام بتشييده. وقد تجمَّع في هذا الموقع الأثري أوائل النساك الأقباط الذين كانت لهم صلة بالقديس أنطونيوس الكبير ثم بعد ذلك بالقديس باخوميوس مؤسِّس حياة الشركة. وأصبح هناك تنوع في التعاليم الدينية لذا كثرت الأديرة الأنطونية إلى جانب التوسع في تشييد الأديرة الباخومية في ربوع مصر وقراها ومدنها المختلفة. وشيَّد القديس باخوميوس تسعة أديرة للرهبان وديرين للراهبات في المناطق الواقعة ما بين أخميم وإسنا.

ووفد بعض تلاميذ القديس باخوميوس وأتباعه إلى منطقة دير قسقام في أواخر القرن الرابع الميلادي تقريبًا. وشاركوا سكان المكان في تشييد دير المحرَّق. وكانت حياة رهبان الباخومية قائمة على أنَّ كلَّ شيء مشتركٌ بينهم. كما كانت حياة الشركة تعتمد في الأساس على البساطة والزهد وعدم امتلاك أية ممتلكات. كما تركزت الحياة الروحية للرهبان على الصلاة المستمرة وسر الإفخارستيا وتعاليم الكتاب المقدس. وقد عاش النساك والرهبان الأوائل في قلايات منفردة ثم في منشوبيات ثم بعد ذلك في داخل الأديرة. كما أعادوا استخدام بعض المعابد المصرية القديمة للسكن وللتعبد بعد أن أجروا بها بعض التعديلات المعمارية لتتناسب مع متطلبات العقيدة المسيحية كبناء كنائس للصلاة وبناء قلالي لسكن الرهبان.

الشكل رقم ٢. حصن دير المحرق. تصوير أ.د./ شيرين صادق الجندي (فبراير ٢٠١٣)

أما عن الحياة في دير المحرَّق، فكان لها طابع خاص منذ القرن الأول الميلادي. فكان هذا الدير مفتوحًا دائمًا لكل الوافدين إليه طلبًا للشفاء ونيل بركة العائلة المقدسة.

المباني المعمارية بالدير:

ويتكون هذا الدير من السور الخارجي الذي يحيط بكل مبانيه الأثرية الجميلة بالإضافة إلى المدخل الرئيسي. ويوجد بهذا الدير كذلك حصن (الشكل رقم ٢–٣) وكنيسة أثرية وقلايات قديمة وأخرى حديثة للرهبان. وخُصِّصت كنيسة القديس يوحنا المعمدان للرهبان الأحباش لصعوبة صلاتهم باللغة القبطية. وبعد إزالة هذه الكنيسة، بُنِيت كنيسة الأحباش في مكانها في القرن التاسع عشر الميلادي. وأُطلق عليها كنيسة القديس تكلا هيمانوت الحبشي. وله هيكل موجود حتى الآن في الكنيسة المعلقة للسيدة مريم العذراء بمنطقة مجمع الأديان أو مصر القديمة بالقاهرة.

الشكل رقم ٣. داخل حصن دير المحرق. تصوير أ.د./ شيرين صادق الجندي (فبراير ٢٠١٣)

وفى سنة ١٩٣٦، أزيلت كنيسة الأحباش. وبعد بناء كنيسة العذراء الجديدة، كرس رئيس الدير السابق قزمان واحدًا من مذابحها الثلاثة باسم القديس تكلا هيمانوت الحبشي لدعم أواصر المحبة والمودة بين أقباط مصر والأثيوبيين. وفى عام ١٩٨٨، احترقت الكنيسة. كما تعرض دير المحرَّق لهجوم إرهابي في ١١ مارس سنة ١٩٤٤ مات خلاله بعض الرهبان الأقباط أثناء تصديهم للهجوم.

الشكل رقم ٤. مذبح كنيسة دير المحرق. تصوير أ.د./شيرين صادق الجندي (فبراير ٢٠١٣)

ومؤخرًا، تجدَّدت عمارة الكنيسة الأثرية بدير المحرَّق. ويرتفع مستوى أرضيتها عن مستوى أرضية الدير، لذا يتم الصعود إليها بواسطة سلم. وتتميز كنيسة الدير بمذبحها غير التقليدي (**الشكل رقم ٤**) والذي تظهر عليه بعض الكتابات القبطية. وجميع أجزاء الأثاث الكنسي بها جديد (**الشكل رقم ٥**). كما يوجد بداخلها مجموعة من الأيقونات النفيسة التى تزينها موضوعات دينية ذات صلة وثيقة بالمسيحية وبأشكال السيدة العذراء وبالأخص تلك الأيقونة التى أهدتها الحاجة صبيحة إلى كنيسة دير المحرَّق وتظهر السيدة العذراء **Theotokos** بملابسها الطويلة الواسعة وهى تحمل الطفل المسيح بين ذراعيها.

الشكل رقم ٥. كنيسة دير المحرق من الداخل. تصوير أ. د./ شيرين صادق الجندي (فبراير ٢٠١٣)

الخاتمة

مما سبق، يُستشف عظمة وتنوع الإرث الثقافي والمعماري والفني في دير المحرَّق منذ القرون المسيحية الأولى حتى اليوم مما زاد من أهميته التاريخية والحضارية لذا كان هذا الدير ومازال وجهة الزوار والوفود الكبيرة والرهبان الأجانب وبالأخص الأثيوبيين لما عُرف عن الكنيسة القبطية من استنارة وريادة في حياة الرهبنة والروحانية والحرص على التواصل بين الماضي والحاضر لإلقاء الضوء باستمرار على تاريخها الطويل المتميز.